

الأثرُ الخاص

قلنا إننا نعنى بالأثر الخاص ؛ ما لم تكن اللغة بجمليتها مظهراً له ، وذكرنا أن هذا الأثر يظهر في كل من ألفاظ اللغة ومعانيها وأغراضها وأسلوبها . وواضح أن لهذا الأثر في كل من هذه الأمور الأربعة ، مظاهر يحتاج كل منها إلى بيان ؛ ولو مجملاً ، يجعله أقدر على الإعلان عن نفسه . وإني أعوذ بالله — وقد استعذت بمعاذ — أن يكلني لنفسي ، وأضرع إليه جلت قدرته ، أن يرزقني عونه ، حتى لا تزل قدمي ولا يضل قلمي .

أَلْفَاظُ اللُّغَةِ

تهذيب ألفاظ اللغة ، الألفاظ الإسلامية ، الألفاظ الاصطلاحية الألفاظ المشتركة ، الألفاظ المترادفة ، الألفاظ الدخيلة ، اللحن واللغات العامية .

تهذيب ألفاظ اللغة

لغة الأمة صورة صادقة لذوقها العام ، تكون سهلة لينة ، أو خشنة جافة ، بمقدار ما لها من شعور رقيق ، وحس مرهف . ولا ريب أن للتحضر أثراً قوياً في إرهاف الحس ، وترقيق الشعور ، واعتبر ذلك في لغة أهل القاهرة وما فيها من عذوبة ورقة ، وفي لغة أهل

« قنا » وما فيها من خشونة وصلابة . ثم اطلب لذلك علة ، فلن تراها إلا التحضر والتبدى .

والعرب أمة أكثرها ضارب في الصحراء ، لم يتحضر منها إلا القليل ، فلا جرم . كان في لغتهم الحشن الجاف . والحوشى الغريب . وقد أسلفنا عن الواسطى أن لغة قريش كانت سهلة ، لما كان حياة التحضر التي كانت تحياها في ذلك .

ولعل من يقرأ الأدب الجاهلى ويتدبره . يزداد إيماناً ، بما للحضارة من أثر في ألفاظ اللغة . فإنه سيرى في أدب أهل الوبر كثيراً من مثل « جحيش » و « مستشزرات » و « جحلنجع » وما إلى ذلك مما ينفر منه الطبع . وينبو عنه السمع : على حين أنه يكاد لا يصادفه من ذلك شيء في أدب القرشيين .

والقرآن الكريم . فضلاً عن أنه نقل العرب من جفاء البداوة وخشونتها إلى لين الحضارة . فنزلوا عن حوشيتهم ، وتوخوا العذوبة في ألفاظهم — قد تخير لألفاظه أجمل ما تخف به نطقاً في الألسن وقرعاً للأسماع . حتى كأنها الماء سلاسة والنسيم رقة . والعسل حلوة ، وهو بعد بالمكان الأسمى الذى أدهشهم وحير ألبابهم . وأفهمهم أن البلاغة شيء وراء التنقيب والتعير . وتخير ما يكد الألسن ويرهقها من الألفاظ ؛ فعكفوا عليه يتدبرونه ، وجروا إليه يستمعونه . حتى من بقى منهم على ضلالتهم لم يستطع أن يخدع نفسه فكان يذهب في غفلة من قومه في جنح

الظلام يستمع إلى النبي صلوات الله عليه يرّده ويتهجد به ؛ وحتى أشفقوا أن يفتن حسنه نساءهم وبنينهم ، فطلبوا إلى أبي بكر رضوان الله عليه أن يكف عن ترتيله بصوت مسموع !

ذلك شأن القوم ، والدعوة يومئذ طفل يحبو ، فلما خضعت جمهرتهم لحكمه ونزلوا عند رغبته ، زاد حبهم له ورغبتهم فيه ، فبعد أن كان إعجابهم به وحرصهم عليه ، وتقديسهم له ، من جهة ما فيه من جمال نظم وحسن أداء ، وروعة أسلوب ، وما إلى ذلك مما يتصل بالناحية البيانية التي يهشون بطبعهم لها ، ويستريحون بفطرتهم إليها — ظاهر ذلك معنى آخر يعتمد العاطفة الدينية بما فيها من قوة وما لها من سلطان ، وهذا وذاك من شأنه أن يحملهم على تدبره ، والإكثار من تلاوته وحسن الاستماع له والإنصات إليه .

أفليس في ذلك ما يحملهم على التجهم للغاتهم ومحاولة السير بها في طريقه ، ويطيع ألسنتهم على توخي سهولة الألفاظ وعذوبتها ؟ نشاهد أن أحداً يقرأ لكاتب ، يجد في كتابته لذة ويصادف لها أريحية ، لا تصل كيفما كان شأنها إلى ما يجد العربي من ذلك بالنسبة للقرآن — فلا يلبث أن يتأثر به ، ويجرى قصداً أو غير قصد إلى محاكاته ، وتحري موطن الروعة والإعجاب في كلامه ؛ بل هذه العامة تقبل على الصحف والمجلات لسبب من الأسباب وليس عندهم من الاستعداد والتأثر بالفصاحة ما عند العربي فيدع ذلك أثراً في لغتهم يكاد

يرفعها إلى لغة الخاصة ، ويجعلها مزيجاً من العامية والفصحى ، والذي يقارن بين اللغة المصرية الدارجة قبل الثورة الوطنية مع قلة الصحف يومئذ وانصراف الناس عنها ، وبعد تلك الثورة لكثرة الصحف وإقبال سواد الشعب عليها ؛ يتنور هذا الأثر واضحاً ، ويتبينه جلياً .

فهل من الممكن أن يتعرض أولئك العرب للقرآن هذا التعرض ، ويتدبرونه هذا التدبر ، ويعجبون به هذا الإعجاب ، ثم تكون لغتهم كما كانت قبل ذلك ؟ لا ريب أن ألفاظ اللغة تأثرت بالقرآن تأثراً بالغاً من هذه الجهة ؛ جهة تدبرهم له ، وإنصاتهم إليه ، وقد ظهر هذا الأثر واضحاً في أدب أولئك الذين اشتد قربهم منه وعلاجهم له ، وحسبنا أن ننظر إلى خطب وكتب خلفاء النبي عليه السلام ومن هم على شاكلتهم ، لنطلع على هذا الأثر يكاد يحدث عن نفسه ، ثم إن هؤلاء لم يقفوا في تأثرهم بالقرآن عند أن تكون ألفاظهم شبيهة بألفاظه ؛ وقريبة منها ؛ بل تعدوا ذلك إلى أن أخذوا نفس ألفاظه ، وشكل تراكيبه ، وظهر ذلك حتى في الشعر !

قال عبد الله بن رواحة :

شهدت بأن وعد الله حق	وأن النار مثوى الكافرين
وأن العرش فوق الماء طاف	وفوق العرش رب العالمين

وقال حسان ، وشعره صورة صادقة لتأثره بالقرآن :

فإمّا تعرضوا عنا اعتمرا	وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا ، فاصبروا لجلاد يوم	يعز الله فيه من يشاء

وقال آخر :

فإنك لا تدري بأية بلدة تموت ، ولأما يحدث الله في غد

وقد يساورك الشك في صحة نسبة هذا الشعر إلى هؤلاء ؛ لأن الناس قد وضعوا عليهم كثيراً ، وتقبله أصحاب السَّيَر والمغازي لم يبحثوا فيه ، فتقول : إن مثل هذا لا يصلح دليلاً على هذا الأثر ؛ وجواب ذلك ما يقول علّام من أعلام البحث في عصرنا الحديث إن الوُضَّاع إنما يتحرون فيما يضعونه أن يكون قريب الشبه بالأصل ، وهم علماء ، فلا ريب يعرفون مميزات العصور ، وطوابعها ، فإذا لم يكن الموضوع هو الأصل ، فهو قريب منه ، ويصح الائتناس به على كل حال .

على أن أماننا النثر بنوعيه : الكتابة والخطابة ، يترأى فيهما كثير من ألفاظ القرآن حتى لقد بلغ بأحدهم أن ينتزع خطبة كاملة من آياته ، وهذا شيء من السعة والكثرة بحيث يحول دون الاستشهاد له والتدليل عليه ، أن هذه البحوث المتواضعة لم يقصد بها إلى التفصيل .

ظل العرب على هذه الحال : يجرون على سنن القرآن في ترقيق اللغة وتهذيبها ويقتدون به في ذلك حتى تذوقوا الحياة الحضرية وتأثرت بها نفوسهم فظاهَرَ القرآن على تهذيب ألفاظ اللغة وترقيقها سبب آخر ، هو هذه الشعوب العريقة امتزج بها العرب ، واتخذوا هم العربية لسانهم فراحوا جميعاً يوسعونها صقلاً وتهذيباً بما لهم من ذوق هو وليد الحضارة وريب المدنية حتى كادت لذلك لا تصلح لغير الغزل والغناء .

الألفاظ الإسلامية

يراد بالألفاظ الإسلامية ، تلك التى تُوسَّع فى دلالتها لتتَّسع للمعانى التى حدثت عن القرآن ، وواضح أن القرآن جاء بعبادات لم تكن فى جبلتها معروفة للعرب ، كما جاء بمبادئ وتعاليم لم يكونوا أيضاً يعرفونها ، مما يسميه العلماء : الحقائق الشرعية ؛ وبديهي — إذا كان العرب لا يعرفونها — أن لا يكون فى لغتهم ما يدل عليها ويكشف عنها ؛ لأن الدلالة فرع الوضع ، والوضع موقوف على معرفة الموضوع له ؛ وإلا كلفنا اللغة شططا وألزمناها محالا ، ليس فى طوقها ولا فى طوق أية لغة عُرِفَتْ وتُعرف ، أن تحقِّقه وتقوم به .

لذلك أخذت تلك المعانى التى استحدثتها القرآن باشتراعه ، أسماءً كانت لمسميات بينها وبين هذه صلة من الصلات .

فمن ذلك ، لفظ المؤمن ، كان يعرف من الإيمان بمعنى التصديق مطلقاً ، والكافر ، من الكفر بمعنى السر ، ومنه :

يعلو طريقة متنها متواتراً فى ليلة كفر النجوم ظلامها

والفاسق لم يكن يعرف إلا من الفسق ، بمعنى خروج الرطبة من قشرتها : والصلاة بمعنى الدعاء ، والزكاة بمعنى النماء ، والصوم وأصله الإمساك مطلقاً ، والحج ، وأصله القصد كذلك . . . وغير ذلك كثير يحتاج فى الإحاطة به إلى بحث خاص يفرد به ويعقد له .

استعمل القرآن واستعمل الناس معه هذه الألفاظ وغيرها استعمالاً خاصاً ، وشرط لها شرائط خاصة ، لا يسوغ استعمالها إلا بعد توفرها ؛ قال ابن فارس في فقه اللغة :

« كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم ، في لغاتهم وآدابهم ، وقرايبهم ونسائهم ؛ فلما جاء الله بالإسلام حالت أحوال ، ونسخت ديانات وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع آخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت ، فعنى الآخر الأول » .

ويتصل بهذا ، تلك الألفاظ التي لم تستطع معانيها أن تعيش إلى جانب القرآن ؛ لأنه يتصادم معها ويأبأها فانت .

ومن ذلك « المربع » وهو ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية ؛ و « النشيطة » وهي ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى القوم ، أو ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل بلوغ الموضع المقصود ؛ و « المكس » وهو دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق الجاهلية ؛ وقول المملوك لمالكة « ربى » وقولهم للملك « أبيت اللعن » . . . إلخ .

ونوع آخر من الألفاظ أهمل ، لا لأن معانيه لم يقرها الإسلام ؛ بل لأنها غريبة حوشية ، أو خشنة جافة أهملها العرب حين درجوا في حياة الحضارة ولم يذكرها منهم إلا من يريد التبرع فتسخر منهم العامة ، وتسخر بهم الخاصة ؛ كالذي روى القائل في أماليه ، لأبي محلم الشيباني في

أواخر القرن الثاني ، من كتاب له إلى بعض الحداثين في نعل . . .

قال هذا المتقعر :

« دَنِّهَا ، فإذا همت تأتَدِن ، فلا تخلِّها تمرِّخِد ، وقبل أن تَقْفَعِيلَ ، فإذا ائْتَدَنْتَ فامسحها بخرقه غير وكيَّة ، ولا جَشِيَّة ، ثم امعَّسْها مَعَّسًا رقيقًا ، ثم سِنَّ شفرتك وأمِّهها فإذا رأيت عليها مثل الهَبْوَةِ فسينَّ رأس الإزميل ، ثم سم بالله وصل على محمد صلى الله عليه وسلم . . . إلخ » !

لا جرم ، كان هذا المتقعر وأمثاله أثقل على الناس من هذه الألفاظ ، على ألسنة الأطفال أول عهدهم بالنطق وكان هذا التقعر أدعى إلى الإمعان في كراهة الغريب ، والإقبال على السهل السائغ ، حتى فارق أكثر هذه الألفاظ أدمغة العرب إلى ألسنة الرواة ومن ذلك إلى بطون الكتب والتواميس لها ما لآثار الربوع العافية والمنازل الدارسة !

الْأَلْفَاظُ الْاِصْطِلَاحِيَّةُ

ويراد بها تلك الألفاظ التي أصبحت تدل على معانٍ استلزمها الحياة التي أُخرج العرب إليها ، وقد كانوا لا يعرفونها قبل الإسلام على النحو الذي عرفوها به بعده ؛ كما يراد بها كذلك تلك التي خرجت عن دلالتها الأولى إلى الدلالة على معانٍ علمية ، اصطلاحية ، لم تكن بالضرورة موجودة عند العرب ، ولا كانوا يعرفون منها شيئاً .

اقتضى اشتراع القرآن حياة جديدة ، تخالف في كل - أو جل - مظاهرها ، الحياة العربية الجاهلية ؛ حياة ذات أنماط خاصة ، ونظم ثابتة تهيمن عليها حكومة منظمة بما للحكومات من مزايا ومقومات ، وتسود فيها أساليب مخصوصة لا تعيش إلا في ظل الحضارات ، ويحيط بها ، على الجملة ، ما يحيط دائماً بحياة المدنية والاستقرار .

وقد أسلفنا أن العرب قد كان لا بدّ لهم من التعصب للعربية لأنها لغة القرآن ، وفي حياتها وتسويدها ، حماية له وإعزاز لشأنه ، - فكان من الطبيعي أن يحملوا ألفاظ اللغة ، بما حباها الله ، من مرونة ومطاوعة - على أن تؤدي تلك المعاني التي طرأت عليها ، ولاحت في دولتها ، ما وسعهم ذلك .

وفي الحق ، أن الذي ينظر إلى مدلولات الألفاظ اللغوية في الحياة الجاهلية ، ثم ينظر إليها في الحياة الإسلامية ؛ يرى فرقاً عظيماً بين النوعين يجعله يعتقد أن هذه اللغة الشريفة خلقت لتكون اللغة في سائر الأزمنة .

اختلفت هذه المدلولات اختلافاً عظيماً ، حتى لو بحث الواضع لها ليفهم منها ما نفهم نحن اليوم ، لأعياء ذلك وما وجد إلى فهمه سبيلاً ؛ دع عنك تلك الألفاظ التي تعطيك الظواهر الطبيعية ، وأعضاء الناقة ، وضروب سيرها وما إلى ذلك مما لا يخضع للأحكام الزمنية ، ولا يجرى على دستور النشوء والارتقاء ، وانظر إلى تلك المعاني التي تقبل النقص والكمال ، والضعف والقوة ، فإنك ستري دذالة الألفاظ عليها تختلف

هذا الاختلاف الشديد في البداوة والحضارة ، بل إنك سترى هذه الدلالة تختلف في بعض عصور الحضارة عنها في بعض آخر ، واعتبر ذلك في مثل : دولة ، وزير ، جريدة ، مجلة . . . وهو كثير والشواهد عليه تكاد تحدث عن نفسها .

فمن ذلك لفظ « الخليفة » بمعنى من يخلف غيره ويقوم مقامه من دون تخصيص ، ثم انحصر معناه فيمن خلف النبي عليه السلام — والوزير ، يعرف بمعنى المناصر ، ثم صار يدل على ما نرى — والحاجب معناه الساتر ، ثم استعمل في الرجل يلزم باب الخليفة فكان أصغر رجل في الدولة ، حتى ضعف الخلفاء في العصر العباسي ، فكان لا يقل عن الوزير .

وهكذا كل ما اتصل بالدولة ، كالسكة ، والتوقيع ، والشرطة ، والمسترزقة ، والمتطوعة ، والجباية ، والمصادرة . . . وعلى الجملة كل ما كان للحضارة فيه أثر . وما أحسب أني أستطيع حصر ذلك على كثيره وترامى أطرافه ؛ على أنه لا فائدة في هذا الحصر والاستقصاء .

هذا ، وقد اقتضى القرآن علومًا شرعية ، كالأصول والفقه ، ولغوية ، كالنحو والصرف والبلاغة والعروض والأدب ؛ كما اقتضت الحياة الجديدة نقل علوم من الأمم الأخرى ، لم يكن العرب ليعرفوها ، وقد بلغت هذه وتلك الثلثمائة أو زادت ، وكان بالضرورة لهذه العلوم مصطلحات لا مناص من إعطائها ألفاظًا تدل عليها ؛ لذلك أخذت هذه المعاني

الحديثة ألفاظاً عربية ، تواضع عليها المشتغلون بتلك العلوم ؛ وقد كثر ذلك كثرة هائلة ، حتى كأن ألفاظ اللغة وضعت وضعاً جديداً ؛ فأنت ترى لهذه الألفاظ الكثيرة في كل تلك العلوم ، دخيلة كانت أم أصيلة ، معاني لغوية وأخرى اصطلاحية .

ولعل مجرد عرض هذه العلوم على كثرتها وكثرة مصطلحاتها في مرآة الفكر ، يجعلنا نتصور أن الإحاطة بها وبما أعطيت من ألفاظ تدل عليها ، يتطلب بحثاً خاصاً وقدرة فائقة ، وحياة تتسع لما يعترض ذلك ويتراءى فيه من آلام وآمال !!!

على أن قدامى العلماء قد تكفلوا بذلك فقاموا بوضع معاجم لتلك المصطلحات العلمية ، من أشهرها كتاب « التعريفات » وكتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » .

فن تلك الألفاظ الاصطلاحية العلمية ، أسماء العلوم من النحو ، والصرف ، والوضع ، والتوحيد ، والفقه ، وأصول الفقه ، والتفسير ... إلخ ؛ وكذلك أسماء مصطلحات تلك العلوم ، من الرفع ، والجزم ، والفاعل والخبر ، والهمز والمد ، والاستعارة والحجاز ، والمديد والخفيف والطويل . . . إلخ . ومن ذلك - وهو في مصطلحات العلوم الدخيلة - الجراحة والتشريح ، الرطوبة ، المزاج الحار ، البارد ، الخاف ، اليابس ، في فنون الطب ، والرصد والتعديل ، والقوس والوتر . . . في مصطلحات الفلك والرياضة ؛ والعرض والجوهر ، والكمية والكيفية في أثر القرآن

مصطلحات الفلسفة ...

وبما لا شك فيه أن العرب ما كانوا ليعرفوا من هذه الألفاظ التي صبحت تدل على معاني أحدثها العلم أو خلقتها حياة التحضر .

قيل لأعرابي : أتهمز لإسرائيل ؟ قال إني إذن لرجل سوء !
 قيل له : فتجر فلسطين ؟ قال : إني إذن لقوى ! وقال خلف :
 قلت لأعرابي : ألقى عليك بيتاً ساكناً ؛ قال : على نفسك فألقه ! !
 وروى صاحب المزهرة أن أعرابياً قيل له : ما القلم ؟ قال : لا أدرى !
 قيل له : توهمه ، قال : عود قلم من جانبيه كتقليم الأظفور ! !

هذا ، وليست ثمة حاجة إلى القول بأن أثر القرآن في اللغة ما كان مقصوراً على التوسع في مدلولاتها ، أو نقلها من معانيها إلى معان أخرى لسبب من الأسباب ؛ وإنما تعدى ذلك إلى خلق ألفاظ لم تكن معروفة في العهد الجاهلي ، وقد قالوا : إن العربي إذا سمى ملكته ، وقويت فصاحته ارتجل ما لم يسبق إليه ، وقالوا : إن رؤبة والعجاج ، كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسبقا إليها ولم تسمع من غيرهما !

فهل كان يمكن أن يروا هذه المشاهد الكثيرة ، ولا يضعوا لكثير منها ألفاظاً لم تعرف من قبل ؟ وبخاصة في العصر الأول ، والملكات كاملة ، والفصاحة قوية ؟ وإذا كنت ترى هذا الارتجال في أواخر القرن الثاني الهجري في مثل كميّة وكيفية ، مع أن الملكة بدأت تضعف ، أو هي ضعفت بالفعل ؛ فإن ذلك يجعلك تجزم بأنهم يومذاك قد ارتجلوا ألفاظاً

كثيرة ، يدلون بها على ما لاح لهم من مشاهد ، لم يكونوا في جزيرتهم يرون لها ظلاً ؛ ولئن اختص الناس مثل رؤية والعجاج بالحديث عنهما في هذا الباب ، إن ذلك لما كان لهما من مقام سام ، ولشهرتهما بفن لم ينازعا فيه ، وهو فن الرجز ، والناس ، أبداً ، حين يقررون حكماً من الأحكام إنما يعمدون في الاستشهاد له بمعروف مشهور .

الألفاظ المشتركة

هي تلك التي يدل كل منها على أكثر من معنى كلفظ « العين » تدل على الجارحة المخصوصة ، وعلى النقد من الدراهم والدنانير ، وعلى مخرج ماء البئر ، وعلى الجاسوس . ومنه الأضداد ، كالجون للأسود والأبيض ، والصريم للليل والنهار !

وقد اختلف الباحثون في اللغة : هل للمشارك وجود فيها ؟ ففريق أثبت وآخر نفى ؛ قال الآمدي : واختار جوازه ووقوعه ؛ ثم قال : أما الجواز العقلي ، فهو أنه لا يمتنع عقلاً أن يضع واحد من أهل اللغة لفظاً واحداً على معنيين مختلفين ؛ ويوافقه عليه الباقيون ؛ أو أن يتفق وضع إحدى القبيلتين للاسم على معنى حقيقة ، ووضع الأخرى له بإزاء معنى آخر من غير شعور لكل واحدة بما وضعته الأخرى ثم يشتهر الوضعان ويخفى سببه ، وهو الأشبه . . . إلخ .

وما أردت أن أدلل على وجود المشترك في اللغة ؛ لأن هذا ليس

موضوعي ، وقد قتله العلماء بحثاً ، وخرجوا من ذلك بإمكانه ووقوعه ، فحسبي أن أتابع في ذلك جمهرة أهل اللغة .

إنما أوردت كلام الآمدي ، لأن فيه إشعاراً بسبب الاشتراك في اللغة على وجه معقول مقبول ، وهو قوله :

« أو أن يتفق وضع إحدى القبيلتين الاسم على معنى ووضع الأخرى له بإزاء معني آخر من غير شعور لكل واحدة بما وضعته الأخرى ثم يشتهر الوضعان ويخفى سببه » .

فهو يرى أن إحدى القبائل تضع هذا اللفظ « عين » مثلاً للنقد ، وتضعه قبيلة أخرى للجراحة المخصوصة ، وتضعه قبيلة ثالثة للجاسوس ثم يشتهر لفظ العين دالاً على كل من هذه المعاني ، وينقله الخلف عن السلف كذلك ؛ وهو لا يرى ذلك سبباً للاشتراك بل السبب الجدير بالاعتبار ! ولعل الذي جعل هذا السبب كذلك : جديراً بالاعتبار : أنه يقضى على الشبهة القوية التي يستند إليها المانعون ، من الاشتراك في منعه ، وهي أن فيه تلبساً على السامع لا يمكن أن يقصد إليه الواضع ، ووجه القضاء على تلك الشبهة ، أن هذا التلبس لم يكن مقصوداً وإنما وقع اتفاقاً ؛ وما ذنب الواضع ، وهو حرّ له أن يضع ما يشاء ، إذا وضع اسماً لمعنى وضعه غيره لغير ذلك المعنى ، ثم لسبب ما ، اشتهر الاسم دالاً على المعنيين جميعاً فأدّى ذلك إلى التلبس على السامع ، على افتراض صحة ذلك ، ما دام هذا التلبس غير مقصود ؟ !

لذلك كان هذا الرأي فى التعليل للاشتراك من أقوى الآراء ، بل أقواها حجة ، وأظهرها محجة .

وإذن فاختلاط بعض قبائل العرب ببعض فى أى موضع ولأى سبب ، يعين على ظهور المشترك فى اللغة . إذ كانت شهرة الاسم بإزاء المعانى المختلفة وقمماً على سماعه دالاً على كل هذه المعانى . وكان مما يذلل هذا ويمهد له . الاجتماع والاختلاط .

وكلمة كان الاجتماع أكثر ، والاختلاط أشد ، كان ذلك أدعى إلى كثرة الألفاظ المشتركة ؛ وما لا شك فيه أن لغات العرب كانت متخالفة كما أسلفنا ، لا فرق فى ذلك بين عرب الشمال وعرب الجنوب ؛ فهذه تميم تقول : « السدفة » وتريد الظلمة بينما تقولها قيس وتريد الضوء . وقد رأينا أن « ثَبَّ » فى الجنوب معناها : اجلس ، وفى الشمال معناها : اقتفز ؛ فإذا اجتمع بعض هؤلاء ببعض وسمع كل منهم من الآخر ما لا يعرف . وتكرر ذلك . عرف كل منهم ما لم يكن يعرف . وأصبح القيسى ينهم من « السدفة » الظلمة والضوء معاً . ويفهم التميمى منها الضوء والظلمة جميعاً ، وصار الحميرى يفهم من الوثوب القفز والجلوس : ثم بمرور الزمن يصبح ذلك لغة لكل هؤلاء ، وعلى هذا القياس !

نستطيع بعد ذلك أن نقول : إن القرآن أحدث فى اللغة كثيراً من الألفاظ المشتركة ، ما دام اختلاط العرب واجتماعهم هو السبب المباشر فى هذا . فقد جمع بينهم فى الجزيرة متخاصمين متحاربين ، أول عهدهم

بالإسلام ، في غزوات كثيرة ، خضعوا بعدها للإسلام وأسلموا ، ثم اجتمعوا عليه متحابين متآلفين يداً على من سواهم ، يفتحون فارس وغير فارس ؛ ثم بعد أن قهروا الأعاجم خرجوا من الجزيرة واجتمعوا في هذا الملك الواسع ، وفي ظل هذا النعيم الشامل ؛ وفي كل هذا ما فيه مما تتعارف به لغتهم ، ومما يحقق كثيراً من الألفاظ المشتركة .

ثم لما جاء عصر تدوين العلوم ، وجعل الرواة يفدون إلى الجزيرة ، ليأخذوا عن أهلها الذين لم تفسد ملكاتهم ، وأخذوا أكثر ما أخذوا عن قيس وتميم ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين مع ما بين هذه اللغات من اختلاف ؛ دونت هذه اللغات من غير تفصيل بحيث اختلط بعضها ببعض ، واندرجت كلها تحت اسم شامل ، هو « اللغة العربية » ؛ وذلك من غير شك يجعل باب المشترك من السعة والكثرة بمكان .

ولست في حاجة إلى القول بأن هذا ليس كل أسباب الاشتراك في اللغة ، فظاهر أن هناك أسباباً أخرى مثل الأسواق العربية الجاهلية ، ومثل الخطأ في النقل كأن يسمع سامع كلمة لها معنى فينقلها لضد هذا المعنى ، لأن الضد أقرب خطوراً بالبال ، وما إلى ذلك مما يعنى الباحث عن أسباب الاشتراك في اللغة ، وليس هو موضوعنا ، فإنما نحاول إيضاح العلاقة بين القرآن وبين المشترك ، وأنه من الأسباب التي أدت إليه .

الألفاظ المترادفة

وهي تلك التي يدل لفظان منها فأكثر على معنى واحد : كما نقول :
السيف والعصب ، والأسد والليث والغضنفر .

وقد اختلف العلماء فيه أيضاً . غير أن أعلام البحث اللغوي على أن مخالفة المخالفين نوع من الشذوذ ؛ فإنه لا مانع من أن يضع قبيل ؛ اسماً للمعنى . ويضع قبيل ثان لهذا المعنى نفسه اسماً آخر ، وهكذا ، ثم تشتهر هذه الأسماء بين العرب دالة جميعها على هذا المعنى ؛ وهذا جائز ، بل واقع بالنسبة إلى لغتين ؛ فهذا البطل للحيوان المعروف معرباً واسمه عند العرب إوز ؛ والورد معرب وهو عند العرب حوجم . والتوت معرب واسمه الفرصاد !

وإذا كان هذا جائزاً وواقعاً بالنسبة إلى لغات الأمم المتباينة ، فإنه أقرب بالنسبة إلى القبائل العربية ، أو على الأقل ، لافرق بين هؤلاء وأولئك . وليس أسمى بعد ما قدمت من قول ، ما أقوله هنا ؛ فاختلاط العرب وتدوين اللغة اللذان دفع إليهما القرآن ، فكثير بهما المشترك ، هما اللذان كثر بهما المترادف ، ولا فرق بينهما في ذلك .

وخلاصة هذا البحث أن من أسباب المترادف والمشارك في اللغة أمران يتصلان بالقرآن الكريم ...

أحدهما : اختلاط قبائل العرب وأحيائهم بعضهم ببعض ، وهم

إن كانوا قد اختلطوا في جاهليتهم في حروبهم وحجهم وأسواقهم . فقد كان هذا الاختلاط في الإسلام أقوى وأعظم أثراً . وشتان ما اجتماع عاجل لا يقوم إلا ليتخاذل . واجتماع قوى الصلة بعيد المدى .

وثانيهما : تدوين ما وثق الرواة بصحته من لغات القبائل المختلفة من غير أن يعينوا لغة كل قبيلة إلا في القليل النادر . لأنهم نظروا إلى هذه اللغات بمرآة عامة هي اللغة العربية ؛ ممّا جعل الناظر في كتب اللغة يخرج منها بأسماء كثيرة لمسمى واحد . وباسم واحد لمسميات كثيرة ! ونثبت هنا ما يقول ابن فارس ممّا يؤمّ إلى ما ادعينا . قال :
 « . . . وكل هذه اللغات مسمّاة منسوبة إلى أصحابها . لكن هذا موضع اختصار ، وهي . وإن كانت من لغة قوم دون قوم . إلا أنها لما انتشرت تعاورها كلٌّ » .

الألفاظ الدخيلة

ويراد بها تلك الألفاظ التي دخلت اللغة العربية من طريق اختلاطها بالأمم الأعجمية ولغاتها . ومن طريق الحياة الجديدة علمية كانت أو اجتماعية - وذلك أن حياة التحضر والمدنية اضطرت العرب أن يأخذوا للغتهم من اللغات الأخرى . ما لم يكونوا يرون من أسباب العيش ووسائل الحياة المترفة الناعمة . وقد كان ذلك في سائر مرافق الحياة ، من أدوات الزينة : وأنواع المأكّل والمشرب والملبس وآلات الغناء .